



الانتقاد على: "تاريخ التمدن الإسلامي" (*)

العلامة محمد شبلي النعماني رحمه الله تعالى

خاتمة⁽¹⁾ هذا البحث:

لو سردنا كل ما قال المؤلف عن جور بني أمية وعما لهم واستثثارهم بالأموال⁽²⁾ وإسرافهم في استلابها، وبيّنا ما في كل قول من التحريف والتدليس، وتغيير المعنى، والخيانة في النقل، وصراف العبارة عن وجهها، لطال الكلام، واحتجنا إلى عمل كتابٍ منفردٍ بنفسه. فلأجل ذلك اقتصرنا على كشف بعض دسائسه مع أنه قُلٌّ من كُُلِّ، وعَيْضٌ من فَيْضٍ⁽³⁾.

ونقول بعد كل ذلك: إن موضوع الكتاب ليس إلا بيان تمدن الإسلام، فأبي متعلق في ذلك لإبداء مساوي بني أمية؟ ولعلك تقول: لا بد في تاريخ تمدن الإسلام من بيان منهج السياسة، وأنها هل

* لقد سبق أن قدمنا للقراء الجزء الأول من هذا السفر العظيم للعلامة محمد شبلي النعماني رحمه الله في العدد السابق من الدراسات الإسلامية وها نحن ننشر الجزء الباقي ومن أراد التعرف على الكاتب فليراجع العدد السابق.

1- في المنار: إنها إذ وقع خطأ مطبعي في الطبعة الأولى، فقرأه مصحح المنار هكذا.

2- في الطبعة الأولى: "الأموال"، والتصحيح من المنار.

3- ومما يناسب ذكره في هذا المقام أن المؤلف لما أنجز الجزء الأول من كتابه أرسله إلى، فكتبت إليه بعد الإعجاب به: إنه لا بد من ذكر مصادر الروايات في كل موضع. وذلك لأجل أنني كنت أخاف عليه التدليس. فأظهر المؤلف في مقدمة الجزء الثاني أنه عمل بذلك، ويذكر الكتاب والجزء والصفحة. ولكن من الأسف أن كل هذا ما أجدى نفعًا، فإنه ما يذكر المطبعة. ولأجل هذا كابدت في تطبيق مصادر كتابه محنة عظيمة، فإن النسخ مختلفة، ولا يدري أي نسخة أرادها. وبسبب ذلك ما اهتدينا إلى أكثر خياناته. ومن المحقق المستيقن به أنه ما نقل عبارة إلا وعمل فيها شيئًا من التحريف والتغيير. ومن كان في ريب من ذلك فليراجع الأصول، ويكابد محنة التطبيق، ليؤمن بما قلته مع حيرة واندهاش. (المؤلف).

كانت مؤسسة على الاستبداد والجور أو العدل والنصفة؟ فجرّ ذلك إلى كشف عوار بني أمية عرضًا. ولكن أناشدك بالله⁽⁴⁾، أما كان لأحد منهم مأثرة تذكر ومتعبة تنقل وسياسة تنفع البلاد ومعدلة نعم الناس؟ نعم، إن بني أمية لا يوزنون بالخلفاء الراشدين، وليس هذا عارًا عليهم، ولا فيه حط لمنزلتهم، فإن إدراك شأو الراشدين والالحوق بهم أمر خارج عن طوق البشر، وليس فيه مطمع لأحد، ولا موضع رجاء لمجتهد، ولكن التوازن والتكاييل⁽⁵⁾ بين الأموية والعباسية. وإنما هم ملوك، فيهم المحسن والمسيء، والعاقل والجائر، والناسك والخليع، والحازم والمغفل. بل الذي أعد لهم سيرةً، وأمثلهم طريقة، وأوفاهم ذمًا، وأرضاهم طورًا، لا يخلو من عثرات لا تقال⁽⁶⁾، وهنات لا تذكر. فلو لزم المؤلف جادة الإنصاف، ووفى لكل أحد قسطه، وأعطى كل ذي حق حقه، لاستراح واسترحنا، ولكنه مال إلى واحد فأطرى في مدحه. ونال من الآخر، فأسرف في تهجينه وذمه.

ثم إنه لم يفارق في مدحه وذمه عمود الكتاب أي ذم العرب والخط من شأنهم. فإنه ذم بني أمية، لأنهم عرب بحتة، ومدح العباسيين لا لأنهم عرب⁽⁷⁾ أو أنهم من سلالة هاشم، أو من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم، بل لأن دولتهم دولة أعجمية. وقد مر نصه في ذلك سابقًا. طرف من مآثر بني أمية وسيرتهم⁽⁸⁾:

وحان لنا أن نذكر طرفًا من مآثر بني أمية وسيرتهم، ومبلغهم من حسن السياسة، وتعمير البلاد، وتمهيد السبل، وتوطيد الأمن، وإقامة المرافق، وتعميم المعارف. اعلم أن دولة بني أمية عبارة عن معاوية، ويزيد، وعبد الملك بن مروان، والوليد، وسليمان، وعمر بن عبد العزيز، وهشام. فأما ما عداهم فلم تطل مدتهم، وليس العبرة بهم إن أحسنوا أو أساؤوا. سيرة معاوية في دولته⁽⁹⁾:

4- كذا كان في الطبعة الأولى، ولكن وضع بعد ذلك في جدول الخطأ، وذكر أن صوابه: "أناشدك الله". والحق أن كليهما صواب. في النهاية لابن الأثير، ج 5، ص 53 ومنه في اللسان (نشد) ومنه في تاج العروس (نشد): "وناشدتك الله وبالله، أي سألتك وأقسمت عليك".

5- غير في الطبعة الثانية "إلى التقابل".

6- من الإقالة.

7- في الطبعة الأولى والمنار: "العرب"، والمثبت من جدول التصحيح.

8- هذا العنوان مئى.

9- العنوان من المنار.

فأما معاوية، فنذكر من سيرته ما ذكره المؤرخ السعدي في مروه بنوع⁽¹⁰⁾ من الاختصار قال: "كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن⁽¹¹⁾ في اليوم واللييلة خمس مرات. كان إذا صلى الفجر جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه... فيخرج إلى المسجد، فيسند ظهره إلى المقصورة، ويجلس على الكرسي، ويقوم الأحداث⁽¹²⁾. فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له، فيقول: ظلمتُ، فيقول: أعزوه. ويقول: عُدِّي علي⁽¹³⁾، فيقول: ابعثوا معه. ويقول: صنِّع بي، فيقول: انظروا في أمره. حتى إذا لم يبق أحد دخل، فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم... فإذا استوتوا جلوسًا قال: يا هؤلاء إنها سميتم أشرافًا لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس. ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا. فيقوم الرجل فيقول: شهد فلان، فيقول: افرضوا له⁽¹⁴⁾. ويقول آخر: غاب فلان عن أهله، فيقول: تعاهدوهم، واقضوا حوائجهم. ثم يؤتى بالغداء والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم. وربما قدم إليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء⁽¹⁵⁾.

وأطال السعدي في بيان أعمال معاوية يوميًا، ثم قال بعد حكاية معترضة: "فلنرجع الآن إلى أخبار معاوية وسياسته وما أوسع⁽¹⁶⁾ الناس من أخلاقه، وما أفاض عليهم من برّه وعطائه، وشملهم من إحسانه مما اجتذب به القلوب، واستدعى به النفوس، حتى آثروه على الأهل والقربات⁽¹⁷⁾ ثم ذكر بعد ذلك عدة وقائع تركناها هربًا عن⁽¹⁸⁾ الإطناب.

سيرة عبد الملك بن مروان في دولته⁽¹⁹⁾:

فأما⁽²⁰⁾ عبد الملك، فقال المدائني: "كان يقال: معاوية أحلم، وعبد الملك أحزم. وهو الذي

-
- 10- في الطبعة الأولى والمنار: "مع نوع"، ولا غبار عليه، ولكن في جدول الخطأ والصواب ما أثبت.
 - 11- في المنار والطبعة الثانية: يؤذن، وهو خطأ.
 - 12- في نشرة الشيخ محمد محيي الدين: "الأحراس"، وذكر الرواية الأخرى.
 - 13- في الطبعتين والمنار: "إلي"، والمثبت من المروج.
 - 14- في النشرة المذكورة من المروج: "استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده".
 - 15- مروج الذهب، ج 3، ص 39-40.
 - 16- في المنار: وسع. ولكن في مصدر النقل كما أثبت المصنف.
 - 17- مروج الذهب، ج 3، ص 45.
 - 18- في المنار: "من الإطناب"، والفعل (هرب) يتعدى بالحرفين.
 - 19- العنوان من المنار.

جعل على بيوت الأموال والخزائن رجاء بن حيوة ذلك المحدث المشهور، وعلى كتابة الخراج والجند سرجون⁽²¹⁾ بن منصور الرومي (وهو نصراني) وحول الدواوين من الرومية والفارسية إلى العربية، وزاد على ما كان فرض معاوية للموالي خمسة، فبلغها عشرين. ودخل في بيعته عبد الله بن عمر، ومحمد بن الحنفية". ذكر كل ذلك صاحب العقد في ترجمته⁽²²⁾. وقد سبق من نسكه وعبادته ما فيه كفاية فيما مر.

ومما ينقم عليه تأميره الحجاج، ولكن الدولة تحتاج في إبانها وأول نشأتها إلى أمثال ذلك. وهذا أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية قتل ستائة ألف رجل صبراً، وهذا أبو جعفر المنصور فعل بالهاشميين ما لم يسبق له نظير في الإسلام. ومع ذلك فإني أعوذ بالله أن أقوم ذائباً عن الحجاج ومدافعاً عنه.

سيرة الوليد في دولته⁽²³⁾:

أما الوليد فكان أهل الشام يفتخرون به، وحق لهم ذلك. قال صاحب العقد الفريد: "كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلفائهم وأكثرهم فتوحاً، وأعظمهم نفقة في سبيل الله. بنى مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى المجذومين حتى أغناهم عن سؤال الناس، وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً. وكان يمر بالبحال، فيتناول قبضة، فيقول: بكم هذه؟ فيقول: بفلس. فيقول: زد فيها، فإنك تريح"⁽²⁴⁾.

وهو الذي وسع مسجد النبي وذهب البيت. قال اليعقوبي: "إن الوليد بعث إلى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجد رسول الله، فليُعنه فيه. فبعث إليه بائة ألف مثقال ذهباً، ومائة⁽²⁵⁾ فاعل، وأربعين حملاً فسيفساء...⁽²⁶⁾. وبعث الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري، وهو على مكة، بثلاثين ألف دينار. فضربت صفائح، وجعلت على باب الكعبة... فكان أول من ذهب البيت في الإسلام. وحج الوليد

20- في المنار: "وأما".

21- في الطبعين والمنار: "سرجون" بالحاء المهملة. وكذا كان في الطبقات القديمة من العقد. وهو تصحيف. و"سرجون" من الأسماء الشائعة عند النصارى السريان. وانظر ترجمته في تاريخ دمشق، ج 20، ص 161، وقد نقل ابن عساكر عن أبي الحسين الرازي صاحب كتاب أمراء دمشق أنه كان نصرانياً فأسلم.

22- العقد الفريد، ج 4، ص 399-400.

23- في المنار: "وأما".

24- العقد الفريد، ج 4، ص 424.

25- في الطبعة الثانية: بائة.

26- كانت النقاط في الطبعة الأولى في صورة نجمتين هنا وفيما يأتي، فخفيت على مصحح المنار، فحذفها.

سنة 91 لينظر إلى البيت وإلى المسجد وما أصلح منه، وإلى البيت وتذهيبه" (27).
 وقال يعقوبي: "كان أول من عمل البيمارستان للمرضى ودار الضيافة، وأول من أجرى على
 العميان والمساكين والمجذومين الأزراق" (28).
 وقال السيوطي في تاريخه للخلفاء: "وكان مع ذلك (أي كونه جبارًا ظلوماً) يجتن الأيتام (29)،
 ويرتب لهم المؤدين" (30).
 فتوحات بني أمية (31):

ثم إن الدول تعرف أقدارها بآثارها، ويقضى بفضلها بعملها. وأخلد الآثار التي تتفاضل بها
 مقادير الملوك، وتتداول بها رتب الدول: كثرة الفتوح، واستتباب أمور الملك والرعية، وتوطد دعائم
 العدل، وانتشار العلم. ودولة بني أمية قد أخذت من كل ذلك قسطاً، وضربت في كل ذلك بسهم.
 أما كثرة الفتوح فقد بلغت دولتهم منها غاية ليس وراءها مطلع لطامح.
 انقضت أيام الخلافة الراشدة، والإسلام يزخر عبابه في جزيرة العرب وديار الشام ومصر وبلاد
 الفرس. فلما تسنمت (32) بنو أمية عرش الخلافة ازداد الإسلام فتوحاً، واتسعت ممالكه، وغلب سلطانه،
 وامتدت سطوته، ودخلت البلاد النائية المترامية الأكناف في حوزة حكمه، فملكوا ما لم يملكه أحد من
 ملوك الإسلام قبلهم ولا بعدهم.
 فتحوا أطرابلس (33) ووطنجة وسائر بلاد المغرب والأندلس، وبلاد الديلم، والأتراك (34)،

-
- 27- تاريخ يعقوبي، ج 2، ص 340.
 28- المصدر السابق، ج 2، ص 348.
 29- كذا في تاريخ الإسلام للذهبي، ج 2، ص 1186، وهو مصدر السيوطي وغيره، والوافي بالوفيات، ج 27،
 ص 463، وفوات الوفيات، ج 4، ص 254، والطبعات القديمة من تاريخ الخلفاء. ولكن في نشرة إبراهيم صالح:
 "يجسن إلى الأيتام".
 30- تاريخ الخلفاء، ص 264.
 31- العنوان من المنار.
 32- كذا في الطبعة الأولى، وغير في المنار إلى: تسنم، وكذا في الطبعة الثانية. وما في الأولى صواب محض. في البيان
 والتبيين، ج 2، ص 320: "كانت بنو أمية لا تقبل الرواية إلا أن يكون رواية للمراثي".
 33- كذا في الطبعة الأولى. وفي المنار: "طرابلس" بحذف همزة. وهما لغتان في اسم المدينة، والأولى أشهر عند بعض
 المتقدمين كالإدريسي، والأخيرة هي المعروفة اليوم، وستأتي.
 34- العبارة: "فتحوا... والأتراك" ساقطة من الطبعة الثانية.

والمغول، والسند، وقبرص، وأقريطش⁽³⁵⁾، وروُدس، وغيرها من جزائر البحر. وغزوا صقلية، وصالحوا النوبة، وتوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا سور القسطنطينية، وضربوا السيف على أبوابها. وافتتح السند محمد الثقفي أحد أبناء قوادهم، وهو ابن سبع عشرة سنة. وقد وطئت جيوشهم ثغور الصين، وثغور بلاد الإفرنج، وعاصمة بلاد الروم، وحدود بلاد الهند. وملكوا من السند إلى ثغور بلاد الإفرنج طولاً، ومن البحر الأحمر إلى بلاد الخزر عرضاً.

ودخل في حوزة ملكهم العرب، وديار الشام والعراق والجزيرة، ومصر والبجة وبرقة وطرابلس⁽³⁶⁾ وتونس ومراكش والأندلس، وأرمينية وخراسان وفارس وتوران والديلم وبلاد الران وطبرستان وجرجان وسجستان، وخوازم وما وراء النهر وبلاد الخزر، وأفغانستان والسند وبعض بلاد الهند.

فمن يدانيهم من الملوك في سعة الملك؟ ومن يباريهم في كثرة الفتوح؟

استتباب أمور الملك والرعية:

ليس في سعة الملك كبير فضل إذا لم يكن هناك تأتق في أمور المملكة، ونظر في أمور الرعية، وقيام بمصالح العباد، وتشمير في عمارة البلاد. ولذلك الذين⁽³⁷⁾ فتحو البلاد ولم ينظروا في أمور أهلها ليسوا عند ذوي الخبرة من أهل التاريخ أسمى منزلة وأعلى مكانة من قطاع الطريق الذين يعيشون في الأرض مفسدين.

أما ملوك بني أمية فقد جمعوا بين سعة⁽³⁸⁾ الملك والنظر في أمور العباد، وكثرة الفتوح وعمارة البلاد: حفروا الأنهار، وعمروا الطرق، وشادوا المصانع⁽³⁹⁾، وابتنوا المساجد، وبذلوا الأموال، وقضوا الحوائج، وكشفوا المظالم، وغمروا⁽⁴⁰⁾ المجذومين والعميان والمقعدين والصعاليك بالجزيل من الإحسان،

-
- 35- زيد بعده في المنار بين القوسين: "كريد"، وكذا كان اسمها في العهد العثماني. وأترك اليوم يسمونها: "جريت". وهي اليوم تابعة لليونان وتسمى "كريت" CRETE.
- 36- كذا في المنار. وفي الطبعتين ذكرت طرابلس بعد مراكش.
- 37- في المنار: "كان الذين".
- 38- في المنار: "بيعة"، وكان خطأ مطبعياً في الطبعة الأولى، وصحح في جدول الخطأ والصواب.
- 39- هي المباني من القصور والحصون والآبار وغيرها.
- 40- في الطبعة الأولى - وكذا في الثانية -: "أغمروا" والمثبت من المنار. وقد جاء في حديث الخندق في صحيح البخاري (4104): "كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو أغبر بطنه" كذا بالشك. وقد روي: "أعقر"، و"غبر" و"اغبر". قال الخطابي في أعلام الحديث، ج 3، ص 1723: وأما "أغمر" فإن كان محفوظاً فمعناه: حتى وارى الترابُ جلدة بطنه. وانظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض، ج 2، ص 99. وبناء على

وأجروا لهم الأرزاق. ثم رتبوا المصالح، ودونوا الدواوين، وحصنوا الحصون، وبنوا المدن والقصور. وقد⁽⁴¹⁾ مر من ذلك شيء كثير فيما تقدم من سيرهم وأعمالهم. وإليك هذه العجالة التي هي كالطل من الويل⁽⁴²⁾.

أما المصانع، فإن هشامًا حصَّن المثقب على يد حسان بن ماهويه⁽⁴³⁾ الأنطاكي، وحفر له خندقًا، وبنى حصن قطرغاش⁽⁴⁴⁾، وحصن مورة، وحصن بوقا⁽⁴⁵⁾ من عمل أنطاكية. وبنى سعيد بن عبد الملك سور الموصل، وهو الذي هدمه الرشيد⁽⁴⁶⁾. وفرش الموصل بالحجارة ابن تليد صاحب شرطة المروانيين⁽⁴⁷⁾. وسار العباس بن الوليد إلى مرعش، فعمرها وحصنها، ونقل الناس إليها، وبنى لها مسجدًا جامعًا⁽⁴⁸⁾.

وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب أربعة وعشرين ألفًا من أهل الشام على العطاء، وبنى هريًا (مخزنًا) للطعام، وهريًا للشعير، وخزانة للسلاح، وأمر بكبس الصهريج⁽⁴⁹⁾، ورمّ المدينة،

هذه الرواية المختلف فيها أثبت بعضهم أن أغمر بمعنى ستر مثل غمر. ولم يذكروا شاهدًا آخر على ذلك. وأخشى أن يكون "أغمرًا" في الطبعة الأولى خطأ مطبعيًا فات تصحيحه.

- 41- في الطبعة الأولى: "فقد". والمثبت من المنار.
- 42- في المنار: الوابل، وهما بمعنى.
- 43- في الطبعة الأولى: "ماهون"، وكذا في الثانية والمنار. والصواب ما أثبت من فتوح البلدان، نشرة دي خويه، ص 166، وهي مصدر المصنف. وانظر: بغية الطلب لابن العديم، ج 1، ص 224، ج 5، ص 2236، ومعجم البلدان (المثقب).
- 44- كذا ضبط في معجم البلدان. وفي فتوح البلدان، ص 167 بفتح الطاء وسكون الراء. وكلاهما ضبط قلم.
- 45- في الطبعتين والمنار: "بوقا" بالفاء. وكذا وقع في هذا الموضع ص 167 من فتوح البلدان، الطبعة المذكورة. وهو خطأ مطبعي فيها، فإن في المواضع الأخرى ص 159، 162، 168 بالالفاء على الصواب. ويكتب بالهاء "بوقة" أيضًا. انظر: معجم البلدان (بوقة) ومنها أبو يعقوب إسحاق بن عبد الله الجزري البوقي، روي عن الإمام مالك وسفيان بن عيينة وغيرهما. وانظر: الأنساب المتفقة لابن القيسراني، ص 178 واللباب لابن الأثير، ج 1، ص 188.
- 46- فتوح البلدان، ص 332.
- 47- المصدر السابق.
- 48- المصدر السابق، ص 189.
- 49- أي ردمه. والصهريج: الخوض الكبير.

وشرفها(50).

وأحدث الحجاج أحد أمرائهم في سنة 83 مدينة واسط بين الكوفة والبصرة وبنى مسجدها وقصرها والقبة الخضراء بها(51).

وأحدث سليمان بن عبد الملك في ولايته مدينة الرملة، ومصرها، وبنى فيها القصور ومسجداً، وحفر الآبار والقني والصهاريج(52).

وبنى أحد قوادهم عقبة بن نافع الفهري بإفريقية قيروانها(53).

وأحدثوا غيرها من المدن والحصون والأرباض(54) في الأندلس وحدود بلاد الروم والسند.

ثم أمنوا الطرق، وعمروا السبل. فكان موضع قيروان غيضة ذات طرفاء(55) وشجر لا يرام من السباع والحيات والعقارب القتالة(56)، فأحدثوا فيه تلك المدينة الزهراء، فأصبحت طرق إفريقية آمنة مستأنسة بعدما كانت مستوحشة ذات مخاوف ومهالك.

وكانت(57) الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مسبعة يعترض للناس فيها الأسد، فوجه الوليد إليها أربعة آلاف جاموسة وجاموس(58)، فنفع الله بها(59).

وأذكر ما كتب ابن الأثير في حوادث سنة 88 أن الوليد "كتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار"(60).

وكان الموضع الذي فيه نهر سعيد بن عبد الملك غيضة ذات سباع، فأقطعه إياها الوليد، فحفر

50- فتوح البلدان، ص 207.

51- المصدر السابق، ص 290.

52- المصدر السابق، ص 143.

53- المصدر السابق، ص 228.

54- جمع الريض، وهو سور المدينة وما حولها من الفضاء والمساكن.

55- الغيضة: الأجمة. والطرفاء: نوع من الشجر.

56- فتوح البلدان، ص 228.

57- في الطبعة الثانية: "كان". ولفظ الطريق يذكر ويؤنث.

58- في المنار: "... آلاف من الجاموس"، فغير عبارة المصنف دون داع، وهي مأخوذة بنصها من فتوح البلدان.

59- فتوح البلدان، ص 168.

60- الكامل، ج 4، ص 15.

وعمر ما هناك⁽⁶¹⁾.

ولما بغى سيل الجراف بمكة في سنة 80 في زمن عبد الملك أمر عامله بعمل ضفائر⁽⁶²⁾ الدور
الشارعة على الوادي وضمائر المسجد، وعمل الردم على أفواه السكك⁽⁶³⁾.

وحفر عدي عامل البصرة من قبل عمر بن عبد العزيز بأمره نهر عدي⁽⁶⁴⁾.

ومن الأخبار التي تدل على شدة حبههم للرعية وكثرة بذلهم في إزاحة خللها وإمالة أذاها: أنه
شكا أهل البصرة إلى عامل يزيد⁽⁶⁵⁾ على العراق ملوحة مائهم، فكتب بذلك إلى يزيد، فكتب إليه:
إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق فأنفقه عليه. فحفر لهم النهر الذي يعرف بنهر ابن عمر⁽⁶⁶⁾. وحفر
عمالهم الجائرون⁽⁶⁷⁾ الغاشمون (كما يقول جرجي أفندي زيدان) والمتسبون إليهم كثيراً من الأنهار غير ما
ذكر، كنهر معقل، ونهر ديبس، ونهر الأساورة، ونهر عمرو، ونهر أم حبيب، ونهر حرب، ونهر
يزيدان⁽⁶⁸⁾، ونهر سلم، ونهر نافذ⁽⁶⁹⁾، ونهر خيرتان، ونهر مثة، ونهر بشار، ونهر فيروز⁽⁷⁰⁾، ونهر

61- فتوح البلدان، ص 179.

62- الضفيرة: الحائط يبنى في وجه الماء.

63- المصدر السابق، ص 54.

64- المصدر السابق، ص 369.

65- يعني: يزيد بن الوليد، وعامله: عبد الله بن عمر بن عبد العزيز.

66- فتوح البلدان، ص 370.

67- في الطبعة الأولى: "الجابرون" بالباء من الجبروت إذا لم يكن خطأ طباعياً. والمثبت من المنار.

68- في الطبعة الأولى: "بزيدان"، وهو خطأ فات استدركه في الجدول الملحق للخطأ والصواب. وكذا في المنار. وهو
منسوب إلى يزيد بن عمر الأسدي صاحب شرطة عدي بن أرطاة، كما في فتوح البلدان، ص 359، قال ياقوت:
"وهذا اصطلاح لأهل البصرة يزيدون في الاسم ألفاً ونوناً إذا نسبوا أرضاً إلى اسم رجل". ومعجم البلدان، ج 5،
ص 436.

69- في الطبعة الأولى: "ناقد" خطأ ولم يستدرك في التصحيحات. وكذا في المنار. ونافذ: مولى لعبد الله بن عامر، كان
ولاه حفرة، فغلب عليه. انظر: فتوح البلدان، ص 360، ومعجم البلدان، ج 5، ص 324.

70- راجع لكل ذلك البلاذري. (المؤلف).

حبيب، ونهر ذراع، ونهر أبي بكر، وغيرها من الأنهار، وهذه الأنهار كلها حفرها بالبصرة⁽⁷¹⁾ فما بال غيرها من البلاد؟

أما ما بذلوا من الأموال وأفرغوا من الجهد في بناء المسجد النبوي، وتذهيب البيت والمسجد الأموي الذي هو معدود من إحدى العجائب في كثرة نفقاته، وعظمة بنائه، ودقة صنعه، وبهجة منظره، وحسن نظامه، فهو أشهر من نار على علم.

وبنو أمية هم أول من اتخذ⁽⁷²⁾ دار الضرب في الإسلام، فكسوا به الإسلام رفعة، وأغنوه عن نقود الروم والفرس، ونجوه مما أوعدته الروم بنقش شتم النبي - صلى الله عليه وسلم - عليها. وهم الذين نقلوا الدفاتر والدواوين من الفارسية والرومية والقبطية إلى العربية⁽⁷³⁾، فزادت العربية انتشارًا ونفوذًا، ولم يمض برهة من الدهر حتى أصبحت هذه البلاد عربية النزعة واللسان. وهم أول من بنى⁽⁷⁴⁾ مستشفى في الإسلام، بنوه بدمشق سنة ثمان وثمانين، جعلوا فيه الأطباء، وأمروا بحبس المجذومين، وأجروا لهم الأرزاق. وهم أول من أنشأ⁽⁷⁵⁾ دارًا للعميان، وهم أول من عمل دار الضيافة⁽⁷⁶⁾ بعد عمر ابن الخطاب. وهم أول من رثى للأيتام وتحنن عليهم، ورتب لهم المؤدبين ليعلموهم⁽⁷⁷⁾.

نشر المعارف والعلم⁽⁷⁸⁾:

أما العلم، فقد زخر بهم بحره، وزهر بدره⁽⁷⁹⁾، فالقرآن الذي هو عمود الإسلام، ورأس العلوم، وينوع المعارف، أدرك الأمة قبل اختلافها فيه عثمان بن عفان، وهو أموي. ثم بعد ذلك

71- في الطبعة الأولى: "بزور" وهو أيضًا مما فات استدراكه. وكذا في المنار. والمذكور في الفتوح بعد نهر بشار: "نهر فيروز"، كما أثبت. ونقل البلاذري ص 361 عن القحذي أنه نسب إلى فيروز مولى ربيعة بن كلدة الثقفي. وقيل غير ذلك.

72- غير في الطبعة الثانية إلى "اتخذوا" دون نسب.

73- راجع لكل ذلك فتوح البلدان للبلاذري. (المؤلف). انظر الصفحات 193، 300، 465.

74- غير في الطبعة الثانية إلى "بنوا".

75- غير في الطبعة الثانية هذا الفعل والأفعال الماضية الآتية كلها من الأفراد إلى الجمع، مع أنها صحيحة.

76- اليعقوبي ذكر الوليد. (المؤلف). وقد سبق ذكره.

77- السيوطي ذكر الوليد. (المؤلف). يعني في تاريخ الخلفاء. وقد سبق ذكره.

78- هذا الفصل كتبه السيد سليمان الندوي تلميذ المؤلف. انظر مقدمة التحقيق.

79- في المنار: "أزهر"، والوارد هنا أفصح وأشهر.

اختلط⁽⁸⁰⁾ العرب بالعجم، واحتكت بهم، ففسدت لغتها. وأسلمت العجم، فلم تستطع السلامة من اللحن، فكثر التصحيف في القرآن، وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج - وهو أحد أمراء بني أمية - إلى كتابه، فوضعوا النقط والإعجام⁽⁸¹⁾، فعصموا به كتاب الله أن يتطرق إليه التصحيف والتحريف تطرقهما إلى التوراة والإنجيل. ووالله هذا أعظم مبرّة برّها الإسلام لا يساويها⁽⁸²⁾ مبرة، وأعظم منّة منّها على الدين لا يوازيها منة. ثم كتب الحجاج المصاحف وفرقها في الأمصار. وكان الوليد - الذي رماه صاحبنا بالاستهانة بالقرآن - يحث الناس على حفظ القرآن، وكان يجزل الصلوات لحفظته، ويضرب الذين لم يحفظوه⁽⁸³⁾. فكثر حفظته، وعظم قدرهم، وجلت رتبهم.

أما التفسير، ففي أيامهم نبغت أجلة المفسرين من التابعين، وفي أيامهم دون التفسير في الصحف. فأول من وضع في التفسير ابن جبير بأمر عبد الملك⁽⁸⁴⁾، ثم مجاهد. أما الحديث، فكانوا يُدرّون على أهله الصلوات، ويبعثون إليهم بالهدايا، ويجرون لهم الأرزاق، لينقطعوا إلى حفظ الحديث وروايته ونقله. وكانوا يكرمون الفقهاء، ويجلون مقامهم، ويراعون جانبهم. فقد كان يصيح صائح من بني مروان في موسم الحج: "ألا لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح" إجلالاً لشأنه، ولكثرة علمه بالمناسك⁽⁸⁵⁾.

وكان عبد الملك أمر الحجاج - وهو أميره على الموسم - أن يقدم ابن عمر في الحج، ويقتص أثره في المناسك⁽⁸⁶⁾. وكان سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، والشعبي، وميمون بن مهران، والزهري، وأيوب بن أبي تميم، وقبيصة بن ذؤيب، ورجاء بن حيوة، أعزة عند بني أمية، وكان أكثرهم عمالاً لهم. وهم أساطين الحديث، وأئمة الرواية، وأعلام النقل. وأنت تعلم أن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم

80 - في المنار: "اختلطت".

81 - ابن خلكان، ذكر الحجاج. (المؤلف). طبعة إحسان عباس، ج 2، ص 32.

82 - في المنار: "لا تساويها"، وكذلك: "لا توازيها".

83 - العقد أخبار الوليد، ص 239 (الصفحة المذكورة من المنار. وقد سبق ما ذكر هنا في الرد على ما وصف جرجي زيدان بني أمية من الاستهانة بالقرآن والحرمين) وابن الأثير سنة 88. (لم أجد في الكامل إشارة إلى حث الوليد على حفظ القرآن).

84 - ميزان الاعتدال للذهبي ذكر عطاء بن دينار (المؤلف). انظر: طبعة البجاوي، ج 3، ص 70.

85 - ابن خلكان ذكر عطاء. (المؤلف). طبعة إحسان عباس، ج 3، ص 261.

86 - انظر ما أخرجه مالك في الموطأ، ص 194 والبخاري في الصحيح، ص 1663 عن سالم بن عبد الله.

لولا استياداعها⁽⁸⁷⁾ بطون الصحف لضاعت بهلاك العلماء وإسراع الموت فيهم. فأسألك بحرمة التاريخ من أمر أهل هذا الشأن بتدوينها في الكتب؟ أليس هو عمر بن عبد العزيز الأموي؟ فجاء في الآثار أن عمر ابن عبد العزيز كتب إلى الآفاق: "انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجمعوه"⁽⁸⁸⁾. وكتب إلى أبي بكر ابن حزم رأس المحدثين أن: "انظر ما كان من سنة أو حديث، فاكتبه لي، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء"⁽⁸⁹⁾. وقد كتب ابن حزم كتباً في الحديث، فتوفي عمر. ثم وضع الكتب فيه ربيع ابن صبيح. وكان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقهاء⁽⁹⁰⁾.

أما أصول اللغة ونحوها، فقد كان تدوينها بأمر بني أمية، ذكر ابن خلكان (المجلد الأول صفحة 240) أن أبا الأسود الدؤلي استأذن زياد ابن أبيه - وهو والي العراقين يومئذ - أن يضع للعرب ما يقيمون به لسانهم، فأبى. ثم بدا له صواب رأيه، فدعا الدؤلي، وقال له: "ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم"، فوضعه⁽⁹¹⁾. وأخذ عنه ما وضعه عَنَسَة بن معدان⁽⁹²⁾ المهري، وعنه ميمون، وعنه عبد الله الحضرمي⁽⁹³⁾، وعنه عيسى بن عمر، وعنه الخليل⁽⁹⁴⁾. وهؤلاء كلهم كانوا في عصر بني أمية، وهم واضعو النحو، ومدونو أصوله.

أما الشعر، ففي عصرهم فتقت ألسنة الشعراء، وارتفع قدرهم، وانتشر ذكرهم. ففحول الشعر وأمراء القول وفرسان القريض هم: الفرزدق الدارمي، وجريز (ابن) الخطفي⁽⁹⁵⁾، والأخطل التغلبي، وعمر بن أبي ربيعة القرشي، وكثير عزة، وجميل بُيَّنة، ومجنون ليلى، وذو الرِّمَّة غيلان، ونُصَيْب. وهؤلاء

87 - في المنار: "لولا أنها استودعت"، وهو صواب، ولكن المثبت من الصحيحات الملحقه بالطبعة الأولى، وكان قد وقع فيها: "لولا استودعت".

88 - رواه هذا اللفظ أبو نعيم في تاريخ أصبهان، ج 1، ص 336 عن عبد الله بن دينار.

89 - علقه البخاري في الصحيح في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم.

90 - مقدمة الزرقاني على الموطأ، ج 1، ص 65، (المؤلف).

91 - وفيات الأعيان، ج 6، ص 392.

92 - في الطبعة الأولى: "عتبة بن مهران"، والاسمان مصحفان. ولعل التصحيف قد وقع في طبعة الوفيات التي اعتمد عليها الكاتب. وكذا في المنار والطبعة الثانية.

93 - تصحفت "الحضرمي"، أيضًا إلى "الحضري" في الطبعة الأولى. وكذا في المنار والطبعة الثانية.

94 - ابن خلكان مجلد 2، ص 380. (المؤلف) طبعة إحسان عباس، ج 6، ص 392.

95 - الحَطَفَى لقب جد جريز. وهو جريز بن عطية بن حذيفة، وقد يقال له: "ابن الحَطَفَى" نسبة إلى جده. ومن ثم زدت ما بين المعقوفين.

كلهم كانوا يقصدونهم بجياد قصائدهم، فكانوا يغمرونهم بالجوائز، فنطقت ألسنتهم بما أصبح زهرةً للأدب وزينة للغة.

وكانوا يحثون الناس على اقتناء الأدب، وتناشد الشعر، وتدارس أخبار الشعراء. وكانوا يستوفدون الشعراء، ويستزيرونهم⁽⁹⁶⁾، ويحيزونهم بالأموال الجزيلة. وكانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية ليتلقوا الأدب، ويتلقفوا اللغة من أفواه الأعراب وأهل البادية. وقد جمع الوليد بن يزيد بن عبد الملك ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها⁽⁹⁷⁾.

أما علم التاريخ والسير والمغازي، فبعصرهم افتتح عصره، وبأمرهم ارتفع أمره. ففحول أصحاب السير والمغازي هم: وهب بن منبه عالم اليمن المتوفى سنة 114، ومحمد بن مسلم الزهري صاحب عبد الملك المتوفى سنة 124، وموسى بن عقبة المتوفى سنة 141. ول هؤلاء كلهم كتب في التاريخ والسير والمغازي⁽⁹⁸⁾. ووضع في أيامهم عوانة المتوفى سنة 147 كتاب التاريخ، وكتاب سيرة معاوية وبني أمية⁽⁹⁹⁾. وكان للملوك بني أمية رغبة شديدة في استطلاع الأخبار الماضية وحوادث الأمم الخالية. قال المسعودي: إنه كان معاوية يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل، ثم ينام ثلث الليل ويقوم. فيأتيه غلمان وعندهم كتب⁽¹⁰⁰⁾، فيقرؤون عليه ما في الكتب من أخبار الأمم وسير الملوك وسياسات الدول⁽¹⁰¹⁾. ولم يصبر على ذلك حتى استحضر عالم عصره عبيد بن شريفة من صنعاء اليمن، وسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العجم، وسبب تبليل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد، وأمره أن يدون ما علمه. وعاش عبيد إلى أيام عبد الملك، وتوفي، وله من الكتب: كتاب الأمثال، وكتاب أخبار الماضين⁽¹⁰²⁾. وأخذ عنه أناس سباهم ابن النديم، وكان من رواته زيد الكلابي في أيام يزيد بن معاوية،

96- يعني: يطلبون زيارتهم. وفي المنار: "ويستزيدونهم". وكذا في الطبعة الثانية بعد حذف الواو!

97- الفهرست صفحة 91. (المؤلف). نشرة أيمن فؤاد السيد، ج 1، ص 286.

98- راجع كشف الظنون، ج 2، ص 1746 وتذكرة الحفاظ، ج 1، ص 111. (المؤلف).

99- الفهرست، ج 1، ص 285.

100- في الطبعة الثانية هنا وفيها بعد: "كتاب"، وهو خطأ.

101- مروج الذهب، ج 3، ص 40-41.

102- كتاب الفهرست صفحة 244. (المؤلف). نشرة أيمن فؤاد سيد، ج 1، ص 279-280. وقد طبع في آخر كتاب

التيجان: كتاب بعنوان أخبار عبيد بن شريفة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، ولعله هو الذي سمي في الفهرست: كتاب الملوك وأخبار الماضين.

عارف بأيام العرب وأحاديثها (الفهرست صفحة 90)(103).

وقد كان هشام مشغولاً بالسير والأخبار، فنقل له جَبَلَة بعض كتب سير الفرس من الفارسية إلى العربية(104).

وأمر هشام النقلة، فنقلوا له كتاب تاريخ ملوك الفرس وقوانين دولتهم وتراجم رجالهم. وكان هذا الكتاب مصوراً، تم نقله سنة 113. رآه المسعودي سنة 303 في مدينة إصطخر، كما ذكر في "التنبيه" صفحة (106)(105).

أما علوم الفلسفة، ومنها الطب والكيمياء، فكان لهم في نقلها إلى العربية آثار صالحة. فنقل ابن أُنال معاوية كتب الطب من اليونانية، وهذا أول نقل في الإسلام(106). وكان في البصرة في أيام مروان ابن الحكم طبيب ماهر يهودي النحلة عارف بالعربية، اسمه ماسرجويه. فنقل ماسرجويه هذا كُنَّاش القس أهرن(107) بن أعين من السريانية إلى العربية. فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن

103 - الظاهر أنه وهم، فإن ابن النديم ذكر من روى عنه عبيد، لا من روى عن عبيد. ثم قوله: "وكان من رواه زيد الكلابي في أيام يزيد بن معاوية..." خلط. وذلك أن ابن النديم ذكر في هذا الفن من المقالة الثالثة أخبار الأخباريين والنسايين وغيرهم، فذكر دغفل النسابة البكري، ثم لسان الحمرة، ثم عبيد بن شرية، ثم علاقة بن كرشم الكلابي من بني عامر بن كلاب، ثم صحار العبيدي وغيرهم. وبعد ما ذكر عبيد بن شرية سمي من روى عنه عبيد، فقال: "الكيس النمري، اللسين الجرهمي، عبد ود الجرهمي واسمه زيد بن الكيس" كذا في طبعة فلوجل من الفهرست. = فقرأ الكاتب "زيد بن الكيس علاقة بن كرشم الكلابي..." وهكذا أو جد شخصاً سَمَّاه "زيد الكلابي". والجدير بالذكر أن الجملة "واسمه زيد بن الكيس" وضعت في طبعة رضا تجدد، ص 102 وطبعة أيمن، ج 1، ص 280، بعد "الكيس النمري". هذا، وفي طبعة رضا: "وابنه زيد بن الكيس". وفيه نظر. انظر: معجم الأدباء، ج 4، ص 583، ج 5، ص 2248.

104 - راجع الفهرست أيضاً (المؤلف). نشرة أيمن فؤاد سيد، ج 2، ص 151، 325.

105 - نشرة الصاوي، ص 92.

106 - هكذا جاء في بحث للمؤلف عن الترجمة والمترجمين في الحضارة الإسلامية، وهو ضمن المجلد السادس من مقالات شبلي، فذكر أن ابن أُنال كان طبيياً، وقد نقل معاوية بعض الكتب الطبية من اليونانية. وكان ذلك كان تمهيداً لحركة الترجمة التي قويت فيما بعد (ص 3). ولكن لم أجد هذا الخبر في الفهرست وعيون الأنباء وغيرهما. والمؤلف نفسه لما ذكر خالد بن يزيد في المقال المشار إليه وأنه بإحضار من ينقل الكتب من اليونانية والتبعية نقل (ص 4) قول صاحب الفهرست (ص 242): "وهذا أول نقل كان في الإسلام".

107 - في الطبعة الأولى والمنار: "أهرون"، وفي الثانية: "هارون". والمثبت من مصدر النقل.

الكتب في الشام، فأخرجه إلى الناس (108)، وبثه في أيديهم (109).

وخالد بن يزيد بن معاوية حكيم آل أمية أول من طلب علوم الفلسفة في الإسلام. وخبره أنه كان يطمع في الخلافة، فلما وثب مروان عليها رغب خالد عنها إلى طلب العلم، فاستقدم جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر - ومنهم: مريانوس الرومي الذي أخذ عنه صنعة الكيمياء والطب - وأمروهم بنقل الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية، فنقلوها له. ولخالد كلام في الكيمياء والطب، وكان بصيرًا بهذين العلمين متقنًا لهما. وله رسائل دالة على معرفته وبراعته كما أخبر به ابن خلكان (110). وقد ذكر له ترجمة صاحبة ابن النديم في فهرسته (111). ونقل سالم كاتب هشام - وهو أبو جبلة المازّ ذكره - رسائل أرسطاطاليس إلى الإسكندر (112).

فبناءً على ما قدمنا من القول بنو أمية هم أول من استقدم الفلاسفة، واستدناهم في الإسلام. هم أول من أمر بنقل العلوم إلى العربية في الإسلام. هم أول من أنشأ خزائن للكتب في الإسلام، وقد ضربنا صفحًا عما كان لآل أمية بالأندلس في السياسة والعلم من المآثر الحسنة والأعمال الجليلة والسير العادلة. فهل لك أيها الفاضل المؤلف إلى الإذعان للحق من سبيل، وإلى الرجوع عن ضلال الرأي من طريق؟
صنيع المؤلف بالعباسية:

عهدنا الوحوش الضارية، مع جفاء طبعها وقسوة قلبها وكونها مطبوعةً على الافتراس والفتك والتروي (113) بالدم، إذا (114) دخلت غابتها وأحاطت بها عائلتها تبدل القسوة بالرحمة، والغلظة باللطف، والغضب بالحنان. فبينما أحدها عبوس، كاشر عن الأنياب، كالح الوجه، مستبشع المنظر، كرية الهيئة، إذ هو هَشُّ بِشٍّ حنون عطوف يذوب لطفًا ورقّة. وكذلك شأن قواد الجند وأبطال الحرب. فإنك ترى أحدهم إذا قاتل الأكفء وناطح الأقران فهو شهاب ينقض، ونار تلتهب، وسعير تفور. وإذا عاشر

108 - في المنار: "للناس".

109 - أخبار الحكماء، ص 80، 324، وعميون الأنباء، ج 2، ص 104، (المؤلف). وانظر: الفهرست، ج 2، ص 229.

110 - وفيات الأعيان، ج 2، ص 224.

111 - الفهرست، ج 2، ص 448.

112 - الفهرست، ج 1، ص 365.

113 - عُجْرٌ فِي الْمَنَارِ عَلَى "الانواء"، وكذا في الطبعة الثانية. والحق أن تروى وارتوى كلاهما صحيح. قال ابن سيدة: روي من الماء، وتروي، وارتوى = كله بمعنى. انظر: اللسان (روي).

114 - في المنار: "وإذا"، وكذا في الطبعة الثانية، وهو خطأ.

الأصحاب فهو أليّنهم جانبًا، وأحلاهم خلّقًا، وأوسعهم حلّمًا، وأرقهم طبعًا. وقد جرّبنا المؤلف وعجمنا عوده في معاملته مع أعدائه (بني أمية) فلننظر كيف حاله في معاشرته مع أصدقائه (العباسية)! قال المؤلف: "فحبّب بعضهم إلى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها⁽¹¹⁵⁾ في العراق، وتكون حجًّا للناس. فبنى بناءً "سماه القبة" الخضراء تصغيرًا للكعبة. وقطع الميرة في البحر عن المدينة"، (الجزء الثاني صفحة 30).

وقال: "وأراد المعتصم أن يستغني عن بلاد العرب جميعًا. وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد، وأقام فيها جنده، فأنشأ فيها كعبة، وجعل حولها طوافًا، واتخذ منى وعرفات⁽¹¹⁶⁾"، (الجزء الثاني صفحة 32).

وقال: "فلما أفضت الخلافة إلى المأمون...⁽¹¹⁷⁾ فأخذ بناصر⁽¹¹⁸⁾ أشياعه، وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفًا من غضب الفقهاء، وفي جملتها القول بخلق القرآن أي أنه غير منزل"، (الجزء الثالث صفحة 141).

غير خافٍ على أحد أن العباسية إن افتخروا وتطاولوا على منازعهم في الرئاسة، فمعظم فخرهم وأبين حججهم أنهم بنو عم النبي، وسدنة البيت، وخدمة الحرم، ودعاة الإسلام، ونقباء القرآن. وصاحبنا يقول: إن المنصور - وهو مؤسس دولتهم وفاتحة خلفائهم - بنى القبة الخضراء إرغامًا للكعبة، وقطع الميرة عن المدينة تضييقًا على أهلها! وإن المأمون - وهو أفضل خلفائهم دينًا وورعًا - كان ينكر نزول القرآن! وإن المعتصم - وهو فحلهم وواسطة عقدهم - بنى كعبة في سامرا، وجعل لها طوافًا!

ولعلك تقول: إن الحاكم بالعدل والقائم بالقسط ليس له حميم ولا عدو، فهو يتحرى الصدق، ويدور مع الحق كيفما دار. فالمؤلف إذا أتته سيئة من بني العباس قضى عليهم من غير محاباة لهم ولا ميل

115 - هنا علق المصحح في المنار بما نصه: كانت صحة العبارة أن يقول: أن يستبدل بالكعبة إلخ. مصحح. يعني أن الصواب في العربية دخول الباء على المتروك كما في قوله تعالى: **ثُكِّ كُ كُ وَ وَ وَ** (سورة البقرة، الآية: 61). وما ورد في كتاب جرجي زيدان من الأخطاء الشائعة الآن.

116 - بعده في المنار والطبعة الثانية: "إلخ".

117 - في المنار في موضع النقاط: "إلخ - ثم قال".

118 - الكلمة ساقطة من الطبعة الأولى. وفي المنار: يناظر. والصواب ما أثبت من تاريخ التمدن الإسلامي، ج 3، ص 159، نشرة حسين مؤنس. وأخذ بناصره أي ساعده وأعانه. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر، ج 3، ص 220. وكان هذا التركيب شائعًا في زمن الكاتب خاصة.

إليهم. وكذلك إذا عرضت له حسنة من بني أمية فهو يوفيههم حقهم⁽¹¹⁹⁾ من الاستحسان وحسن القول وتنويه الذكر. هيهات! هذا كان رجاؤنا، فخاب الظن، وكذب الأمل، وذهبت الثقة؛ فإن المؤلف لما ذكر بني أمية عقد لمثالبهم أبواباً، منها: استخفافهم بالدين، وذكر فيه قتال عبد الملك مع ابن الزبير فقلب الرواية، كما سبق ذكره⁽¹²⁰⁾. فلو كان مغزى المؤلف الصدق وبيان الحقيقة لكان يعقد باباً للعباسية أيضاً، يذكر فيه استخفافهم بالكعبة وإنكارهم لنزول القرآن.

وهاهنا موضع نظر إلى دقة مكيدة المؤلف، وحسن احتياله. فإنه يريد من طرف الغض من الكعبة، والخط من القرآن، ومن طرف الانتصار للعباسية والذب عنهم، لأجل أنهم كسروا شوكة العرب، واتخذوا العجم بطانتهم وعمود دولتهم. فذكر استخفافهم بالكعبة، ولكن مغموساً مبدداً تحت عنوان "ثروة الدولة الإسلامية" ليأخذ بطرفي المطلوب، ويفوز ببغيتيه معاً!

أما كشف الجليلة عن أصل الحال، فالأمر أن من يدعي الخلافة (وهي منصب ديني) ويرشح لها نفسه لا يجد إلى ذلك سبيلاً إلا بالتظاهر بالدين، والتصبغ به، ونصب نفسه لإعلاء كلمته ورفع مناره، وحمل الناس على تعظيم شعائره، والتدلي إلى خاصة القائم به؛ ليجلب عطف القلوب، وجذب الأميال، ورضاء العامة، والتعجب إلى الناس. ولذلك كان الخلفاء (بنو أمية والعباسية كلاهما) يصلون بالناس ويؤمنونهم، ويحضرون الموسم، ويحجون بهم، أو يرسلون من خاصتهم من ينوب مناهم، ويخطبون على المنابر. ولذلك لما أراد أهل الشام المكيدة بعلي رضي الله عنه ورفعوا المصاحف، كف أصحاب علي عن القتال. ولما قال علي: هذه خديعة منهم، قالوا: إذا لم تدعن لهذا خلعتناك. فلم يقدر على خلافهم، ورضي بما لم يكن وفق رضاه. ولما فعل يزيد ما فعل، ضج الناس. وكادوا يسطون عليه لولا أنه مات عاجلاً. ولما أراد الحجاج قتال ابن الزبير أغراهم بأن ابن الزبير ألد في الدين، وزاد على الكعبة. ولذلك نصب المناجيق تلقاء الزيادة التي كان زادا ابن الزبير رضي الله عنه. ولما جاهر الوليد بن يزيد بالفسق قاموا عليه وقتلوه. ولما قال أبو نواس يمدح الأمين وصدر القصيدة بهذا البيت⁽¹²¹⁾:

ألا فاسقتني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقتني سراً فقد أمكن الجهر

119 - "حقهم" ساقط من الطبعة الثانية. وفي الطبعة الأولى: "بوي".

120 - في الطبعة الأولى: "أسبقنا ذكره".

121 - ديوانه، ج 3، ص 127، والرواية: "إذا أمكن الجهر".

اتخذ المأمون هذا وسيلة لإغراء الناس على مخالفة الأمين⁽¹²²⁾.

فهل تصدق بعد كل ذلك بأن المنصور أو المعتصم كان يقدر أو يسوغ له أن يصغر شأن الكعبة ويمس من شرفها؟ وهل كان يقدر المأمون أن يحمل الناس على إنكار القرآن؟ والعياذ بالله!
فأما استشهاد المؤلف في هذه الواقعة بابن الأثير وغيره، فكله تحريف، وتدليس، وسوء تأويل.
ولولا أنني سئمت من كشف دسائسه مرة بعد أخرى لأوضحت الأمر وبينت حقيقة الحال.

قال المؤلف: "ولما تولى المعتصم سنة 218 هـ واصطنع الأتراك والفراغنة ازداد العرب احتقاراً في عيون أهل الدولة، وتقاصرت أيديهم عن أعمالها حتى في مصر...⁽¹²³⁾ فأصبح لفظ "عربي"⁽¹²⁴⁾ مرادفاً لأحقر الأوصاف عندهم. ومن أقوالهم: "العربي بمنزلة الكلب، اطرح له كسرة، واضرب رأسه"، وقولهم: "لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به"، (الجزء الثاني صفحة 31 و 32).
من أحسن أعمال آل عباس عند المؤلف: أنهم صغروا شأن العرب، وساموهم الخسف، وسلطوا عليهم الأعاجم والأتراك وجعلوهم⁽¹²⁵⁾ ولاية البلاد، بيدهم الأمر والنهي، والرفع والخفض، والعقد والحل، والنقض والإبرام. ذكر ذلك في غير موضع، وكلما ذكره وجد من نفسه ارتياحاً إليه، وشفاءً لحزازه، وهزةً لعطفه، ونيلاً لأربه.

ومع أن الواقعة مكذوبة أو محرفة على جري عاداته، فنحن لا ننازعه في ذلك، ونطوي الحديث على غرته⁽¹²⁶⁾، ولكن نقول: إذا مدح أحد مثلاً دولة فرنسا، وقال: إنهم ذلّوا الفرنسيين⁽¹²⁷⁾، وأرغموا أنوفهم، واستلبوهم المناصب، وقلدوا الولايات الأجنبي، وجعلوهم قابضي أزمة الأمور يولون ويعزلون، وينفقون ويمسكون، فهل هذا يكون مدحاً ترضى به دولة فرنسا، أو يكون هذا عاراً يستحى منه، ومسبة يستنكف عنها، وشناعة تشمئز منها القلوب؟ وأنصف من نفسك ما كان حظ العباسيين من تولية الأعاجم؟

122 - انظر: الموشح للمرزباني، ص 360، والأوائل لأبي هلال، ص 261.

123 - النص متصل في الطبعة الأولى. وفي المنار وضعت نقاط وبعدها: "إلى أن قال".

124 - في الطبعة الثانية: "العربي"، وهو خطأ.

125 - في المنار: "جعلوا هؤلاء". وكذا في الطبعة الثانية.

126 - من قولهم: طبت الثوب على غره، أي على كسره الأول.

127 - في المنار: فرنسة و الفرنسيين. ولا أدري لماذا غير المصحح ما جاء في الطبعة الأولى، مع أن الوجهين كليهما في اسم البلد والنسبة إليه جميعاً قد وردا في مجلة المنار نفسها في مواضع كثيرة.

أما آل برمك، فلا ننكر فضلهم ومحاسن آثارهم، ولكنهم مع كل ذلك استأثروا بالأموال، وانفردوا بالأعمال، حتى لم يكن حظ الخلفاء من الخلافة إلا الاسم فقط. فاضطر الرشيد إلى النكبة بهم، إزالة دولتهم.

وأما الأتراك فصاروا يلعبون بالخلافة كل ملعب، فكم قتلوا من الخلفاء، وسجنوا وعذبوا بأنواع العذاب، وتركوهم يموتون جوعاً يسألون الناس ولا يعطون! فهل هذه سياسة تمدح، ومأثرة تذكر، وفضيلة يفتخر بها؟

الخلفاء الراشدون:

المؤلف حرفته تأليف الكتب متكسباً به⁽¹²⁸⁾، وهو يعرف حق المعرفة أنه لو انتقد على الخلفاء الراشدين، ونال منهم تصريحاً، كسد سوقه، وخابت صفقته. فدبر لذلك حيلًا لا يكاد يتفطن لها اللبيب المتيقظ، فضلاً عن البليد المتساهل. فعمد إلى رؤوس المثالب، ونسبها إليهم بأنواع الاحتيال. فتارة بتبيدها في ثنيات الكلام وإبعادها عن موضع العناية، وتارة بإيرادها عرصاً موهماً عدم الاعتناء بها، وتارة بذكرها محتالاً لها عذراً. وإذا كررت النظر في كلامه، وتصفحت ما فيه، وجمعت ما هو مبدد، ونظمت ما هو مفرق، تكاد تستيقن أن الخلفاء كانوا من أشد أعداء العلم، وأنهم أبادوا الكتب والخزانات، واضطهدوا أهل الذمة، وجعلوهم أذلاء لا يؤذن لهم، ولا يؤبه بهم.

أما كونهم أعداء العلم، فبين المؤلف ذلك إجمالاً وتفصيلاً فقال:

- "كان الإسلام في أول أمره نهضة عربية، والمسلمون هم العرب، وكان اللفظان مترادفين، فإذا قالوا: العرب أرادوا المسلمين، وبالعكس. ولأجل هذه الغاية أمر عمر بن الخطاب بإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب...⁽¹²⁹⁾ وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة لما فازوا في فتوحهم، وتغلبوا على دولتي الروم والفرس، فنشأ في اعتقادهم أنه لا ينبغي أن يسود غير العرب، ولا يتلى غير القرآن"⁽¹³⁰⁾.

- "أما في الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام أن الإسلام يهدم ما كان قبله، فرسخ في الأذهان أنه لا ينبغي أن ينظر في كتاب غير القرآن".

128 - يعني: بتأليف الكتب. وفي المنار: "بها"، يعني: بحرفته. وفي الطبعة الثانية: "مكتسباً".

129 - في المنار بعد النقاط: "إلى أن قال". والنص في الطبعة الأولى متصل.

130 - في آخر هذا النقل زيد في المنار: "إلخ". وكذا في النقول الثلاثة الأخرى التالية. وتابعتها الطبعة الثانية.

- "فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه، ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس، كما حاولوا بعدئذ هدم إيوان كسرى وأهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة"، (الجزء الثالث صفحة 39).

- "وبناءً على ذلك هان عليهم إحراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الإسكندرية وفارس"، (الجزء الثالث صفحة 135).
حريق خزانة الإسكندرية⁽¹³¹⁾:

لم يقتنع المؤلف بذلك، فعقد بابًا لإثبات أن حريق خزانة الإسكندرية⁽¹³²⁾ كان بأمر عمر بن الخطاب، وأطال وأطنب في ذلك. واستدل عليه بستة دلائل⁽¹³³⁾، نحن نذكرها مع الرد عليها إجمالاً:
قال: "أولاً: قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن بالإسناد إلى الأحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة".

الذي ذكر قبل ذلك وحول عليه هاهنا أقوال، منها: إن الإسلام يهدم ما كان قبله. وكلنا يعرف أن المراد به إبطال عوائد الجاهلية ومزعماتها⁽¹³⁴⁾، وليس المراد محو الكتب أو إحراق الخزائن. ولكن لما كان المؤلف دخيلاً فينا غريب الذوق والمعرفة حمل الكلام على غير محله، أو لعله عارف يتجاهل، وبصير يتعامى!

ومنها: قول النبي عليه السلام: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم⁽¹³⁵⁾، وإلهنا وإلهكم واحد"⁽¹³⁶⁾. وأي متعلق في هذا؟ بل هو يخالف⁽¹³⁷⁾

131- للمؤلف بحث مهم مشهور في هذا الموضوع في اللغة الأردنية، وقد ترجم قديماً إلى اللغة الإنكليزية ونشر في صورة كتاب. ونشر الأستاذ كرد علي في مجلة المقتبس خلاصة مقتضبة منه بالعربية، ترجمت من الإنكليزية. وهي ضمن هذه المجموعة.

132- في الطبعة الأولى والمنار هنا وفي العنوان: الخزانة الإسكندرية. وهو تركيب وصفي غير أنه عدل عنه في التصحيحات الملحقمة بالطبعة المذكورة إلى ما أثبت من التركيب الإضافي.

133- الجزء الثالث من تمدن الإسلام، ص 40. (المؤلف). ورقم الصفحة من المنار.

134- ورد هذا القول في المراسلة بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ما في قصة نيل مصر، أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر والمغرب، ص 176. والمراد به في القصة ما ذكره المؤلف. وهو حديث نبوي أخرجه مسلم (192) عن عمرو بن العاص أيضاً، ومعناه أن الإسلام يُسقط ما فعل الإنسان قبله من المعاصي. فهذا سياق آخر.

135- في الطبعة الأولى: "... علينا وأنزل عليكم"، وهو سهو. وكذا في الطبعة الثانية.

136- أخرجه البخاري (4485) من حديث أبي هريرة.

بحفظهما ودرسهما⁽¹⁴⁴⁾. ولم يكتفوا بها، بل أخذوا يروون ويتفاوضون كل ما وجدوا من أقاصيص أهل الكتاب ومروياتهم. وقد اعترف بذلك المؤلف نفسه، فقال: "وقد رأيت أن⁽¹⁴⁵⁾ العمدة في التفسير على النقل بالتواتر والإسناد من النبي⁽¹⁴⁶⁾، فالصحابة، فالتابعين. والعرب يومئذ أميون لا كتابة عندهم، فكانوا إذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتوق إليه نفوسهم البشرية من أسباب الوجود وبدء الخليقة⁽¹⁴⁷⁾ وأسرارها سألوا عنه أهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى...⁽¹⁴⁸⁾ فكانوا إذا سئلوا عن شيء أجابوا بها عندهم من أقاصيص التلمود والتوراة بغير تحقيق، فامتألت كتب التفسير من هذه المنقولات"، (الجزء الثالث صفحة 64).

وذكر المؤلف عقيب ذلك وهب بن منبه وأنه قرأ من كتب الله 72 كتابًا، ثم قال: "فكان للعرب ثقة كبرى فيه". وقال بعد ذلك: "فكانت كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار، وفيها الغث والسمين مما نقل إليها من الأديان الأخرى".

فانظر كيف يناقض المؤلف نفسه! فقال: "فنشأ في اعتقادهم أنه لا ينبغي أن يسود غير العرب، ولا يتلى غير القرآن". "فرسخ في الأذهان أنه لا ينبغي أن ينظر في كتاب غير القرآن". "فتوطدت العزائم على الاكتفاء به (أي القرآن) عن كل كتاب سواه، ومحو ما كان قبله من كتب العلم".

ويقول الآن: إن كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار... مما نقل إليها من الأديان الأخرى، وإنه كان للعرب ثقة كبرى في وهب بن منبه، وإن كتب التفسير امتألت من منقولات أهل الكتاب. فلو كان أهل القرن الأول يبغضون ما سوى القرآن ويمحون ما كان قبله من العلم، كما يدعيه المؤلف، فمن روى الإسرائيليات وأقاصيص التلمود والتوراة وحشاها في التفسير؟ ولما كانت المسألة موضع زيادة تفصيل نزيدك توضيحًا وتفصيلًا.

كان لعدة من الصحابة وكبراء التابعين عناية كبرى بالتوراة وغيرها من الكتب السباوية. فمنهم أبو هريرة الذي كان ملازمًا للنبي عليه السلام، منقطعًا إلى الرواية، لم يدانه أحد في كثرة الرواية، كان مشغوفًا

144 - في كلام المؤلف على هذا الوجه نظر، وسيأتي تفصيله.

145 - "أن" ساقطة من الطبعة الثانية.

146 - كذا في الطبعتين والمنار. وفي الطبعة التي بين يدي من تاريخ التمدن الإسلامي، مع تعليقات الدكتور حسين مؤنس، ج 3، ص 70: "منذ أيام النبي".

147 - في الطبعة الأولى والمنار: "الخلقة"، والمثبت من مصدر النقل، وكذا في الطبعة الثانية.

148 - بعد النقاط في المنار: "إلى أن قال". وكذا في الطبعة الثانية، والنص في الطبعة الأولى متصل.

بقراءة التوراة ودرسها. قال العلامة الذهبي في طبقات الحفاظ في ترجمته: "عن أبي هريرة أنه لقي كعباً (وهو حبر اليهود) فجعل يحدّثه، ويسأله. فقال كعب: ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة" (149).

ومنهم: عبد الله بن عمرو بن العاص، أحد من هاجر قبل الفتح. قال الذهبي في طبقات الحفاظ: "كان من أيام النبي صلى الله عليه وسلم صوّماً قواماً، تالياً لكتاب الله، طلبةً للعلم. كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً كثيراً... وكان أصاب جملة من كتب أهل الكتاب، وأدمن النظر فيها، ورأى فيها عجائب" (150).

ومنهم: عبد الله بن سلام حليف الأنصار، أسلم وقت مقدم النبي صلى الله عليه وسلم. وفيه ورد قوله تعالى: **ث ن ث نث** (151). نقل الذهبي بعد ذكر فضائله وكونه عالم أهل الكتاب، رواية بالإسناد يرفعه إلى عبد الله بن سلام، أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إني قرأت القرآن والتوراة. فقال: اقرأ هذا ليلةً، وهذا ليلةً"، فهذا إن صحّ فيه الرخصة في تكرير التوراة وتدبرها (152).

ومنهم: كعب الأحبار. كان من كبار أهل الكتاب، أسلم في زمن أبي بكر. قال الذهبي: "قدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن أصحابه". فهذا كأنه تصريح في أن الصحابة أخذوا عنه علم أهل الكتاب.

ومنهم: وهب بن منبه. قال الذهبي في ترجمته: "وعنده من أهل الكتاب شيء كثير، فإنه صرف عنايته إلى ذلك (وبالغ)... وكان ثقة واسع العلم. ينظر بكعب الأحبار في زمانه... وعن وهب قال: يقولون: عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه (أفرايت من جمع علمهما؟ يعني نفسه)" (153).

فهل بعد كل هذا يصح (154) قول المؤلف: "إن الصحابة ومن يليهم كانوا يقولون: إنه لا ينبغي

149 - طبقات الحفاظ، ج 1، ص 30. وانظر: سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 600، وقال محققه: إسناده ضعيف. قلت:

وقول كعب: "لم يقرأ التوراة" يدل على أن أبا هريرة لم يقرأ التوراة، فضلاً عن شغفه بها.

150 - طبقات الحفاظ، ج 1، ص 35، وانظر: سير أعلام النبلاء، ج 3، ص 81.

151 - سورة الرعد، الآية: 43.

152 - "فهذا إن صح... إلخ قول الذهبي. انظر: طبقات الحفاظ، ج 1، ص 25. وقد نقل الحديث في سير أعلام النبلاء،

ج 2، ص 419 أيضاً، وضعف إسناده. وانظر تعليق المحقق.

153 - تذكرة الحفاظ، ج 1، ص 77، 78. ومنه زدت ما بين المعقوفين. فإنه أدل على المقصود.

154 - في الطبعة الثانية: "فهل يصح بعد كل هذا".

أن يقرأ كتاب غير القرآن، ومحو ما كان قبلهم من العلم"؟ عياداً بالله.

قال المؤلف: "ثانياً: جاء في تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج. ثم نقل رواية الإحراق برمتها، وأطال في إثبات أن أبا الفرج ليس بأول من روى هذه الرواية، بل ذكرها عبد اللطيف البغدادي عرضاً في ذكره عمود السواري، وذكرها القفطي في تاريخ الحكماء.

لا ننازع المؤلف في أن أبا الفرج مسبق في ذكر هذه الرواية بالقفطي والبغدادي، ولكن ماذا ينفعه ذلك؟ فإن البغدادي وهو أقدمهما من القرن (155) السادس للهجرة (156)، وذكر الرواية من غير إسناد ومن غير إحالة على كتاب.

تعود المؤلف من صباه قبول (157) مختلقات أهل الكتاب وأوهامهم، فسبب ذلك أنه يزن التاريخ الإسلامي بميزان غير ميزاننا. ولذلك يصغي إلى كل صوت، ويستمع لكل قائل. لا يعرف أن هذا الفن له أصول ومبادئ (158) وقواعد، وما لم تكن الرواية مطابقة لهذه الأصول اليقينية لا يلتفت إليها أصلاً. منها: أن الناقل للرواية لا بد أن يكون شهد الواقعة، فإن لم يشهد فليبين سند الرواية ومصدرها حتى تتصل الرواية إلى من شهدها بنفسه. ومنها: أن يكون رجال السند معروفين بصدقهم وديانتهم. ومنها: أن لا يكون الرواية تخالف الدراية ومجاري الأحوال.

ولذلك اهتم مؤرخو الإسلام قبل كل شيء بضبط أسماء الرجال والبحث عن سيرهم وأحوالهم وديانتهم ومحلهم من الصدق، فدونوا كتب أسماء الرجال، وكابدوا في ذلك محنةً يضيق عنها النطاق البشري، فعملوا كتباً غير محصورة. منها: الكامل لابن عدي، الثقات لابن حبان، وتهذيب الكمال للمزي، وتهذيب التهذيب لابن حجر، وطبقات الصحابة (159) لابن سعد ولابن ماکولا (160) وابن عبد البر ولابن الأثير ولابن حجر، وتهذيب الأسماء للنووي، وميزان الاعتدال للذهبي، ولسان الميزان لابن حجر. وتجد كتب القدماء من مؤرخي الإسلام كلها أو أكثرها كتاريخ البخاري، وسيرة ابن إسحاق،

155 - في المنار: "من أهل القرن".

156 - ولد سنة 557هـ وتوفي سنة 629هـ. انظر ترجمته في عيون الأنباء، ج 3، ص 330، وفوات الوفيات، ج 2، ص 385.

157 - في الطبعتين: "بقبول"، والمثبت من المنار.

158 - في الطبعتين والمنار: "مباد".

159 - يقصد الطبقات الكبرى لابن سعد، وهو يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وطبقات الصحابة والتابعين.

160 - في كتابي ابن الأثير وابن حجر نقول كثيرة عن ابن ماکولا، فظن المؤلف أن له كتاباً في طبقات الصحابة. وإنما ينقلان من كتابه الإكمال في رفع الارياب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب.

وتاريخ الطبري وابن قتيبة⁽¹⁶¹⁾ وغيره مسلسللة الإسناد مبينة الأسماء ليتمكن نقد الرواية ومعرفة جودها من زيفها.

فأول شيء يهمننا في هذا البحث أن نرى: هل ذكر القفطي والبغدادي هذه الرواية مسندة؟ وذكر مصدر الرواية وأسماء رواتها أم لا؟ وأنت تعلم أن البغدادي والقفطي من رجال القرن السادس والسابع فأئى عبارة تتعلق بالقرن الأول، يذكرانها من غير سند ولا رواية، ولا إحالة على كتاب؟ أما كتب القدماء الموثوق بها، فليس لهذه الرواية فيها أثر ولا عين. هذا تاريخ الطبري، واليعقوبي، والمعارف لابن قتيبة، والأخبار الطوال للدينوري، وفتوح البلدان للبلاذري، والتاريخ الصغير للبخاري، وثقات ابن حبان والطبقات لابن سعد، قد تصفحناها، وكررنا النظر فيها. ومع أن فتح الإسكندرية مذكور فيها بقضها وقضيضها، ليس⁽¹⁶²⁾ لحريق الخزانة فيها ذكر⁽¹⁶³⁾.

وعلاوة على ذلك، فإن في فتح مصر كتباً مختصة بذلك، مثل خطط مصر للكندي، وكشف الممالك لابن شاهين⁽¹⁶⁴⁾، وتاريخ مصر لعبد الرحمن الصديفي⁽¹⁶⁵⁾، وتاريخ مصر لابن بركات

161 - لا يعرف لابن قتيبة كتاب في التاريخ إلا كتاب المعارف، ولكنه ليس مسنداً.

162 - في المنار: "فليس"، والفصيح ما كتبه المؤلف.

163 - لم أجد ذكرًا لفتح الإسكندرية في المعارف والأخبار الطوال والتاريخ الصغير - والصواب أنه التاريخ الأوسط للبخاري، أما الصغير فلم يعثر عليه بعد - وطبقات ابن سعد.

164 - هو غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، أمير من المماليك. ولي نظر الإسكندرية ثم نيابتها سنة 837هـ وقد توفي سنة 873. واسم كتابه: كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وقد اختصره نفسه بعنوان زبدة كشف الممالك... وهذا المختصر قد طبع في باريس سنة 1894م بعناية بولس راويس. وذكر في مقدمته أن الكتاب الأصل كان في مجلدين ضخمين يشتملان على أربعين باباً، فلخصه في اثني عشر باباً (ص 4). وقد ذكر المؤلف كتاب كشف الممالك في بحثه باللغة الأردية ولكن قال: لابن شاهين أيضاً المتوفى سنة 385هـ، مقالات شبلي، ج 6، ص 111، وهذا وهم. فإن الذي توفي في هذه السنة أبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين الحافظ الواعظ محدث بغداد. انظر: ترجمته في تاريخ بغداد، ج 13، ص 133، وتاريخ الإسلام، ج 8، ص 580، وقد وهم الزركلي أيضاً، فعد كشف الممالك من مصنفات ابن شاهين هذا، ج 5، ص 40، ومختصره زبدة كشف الممالك، من مصنفات غرس الدين، ج 2، ص 318.

165 - في الطبعة الأولى: الصوفي، وهو خطأ فات استدراكه. وكذا في المنار والطبعة الثانية. وهو أبو سعد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المتوفى سنة 347هـ. وكان ليونس كتابان في تاريخ مصر، أحدهما كبير لأهل مصر، والآخر للغرباء الواردين عليها. وعنه نقول كثيرة في المصادر جمعها بعضهم في مجلدين.

النحوي⁽¹⁶⁶⁾، وتاريخ مصر لمحمد بن عبيد الله⁽¹⁶⁷⁾ وغيرها مما ذكرها صاحب كشف الظنون. والمقريري جمع وأوعى كل ذلك⁽¹⁶⁸⁾، ولم يترك رواية ولا خبراً يتعلق بمصر إلا وذكره عند تفصيل الفتح، ولم يذكر هذه الواقعة عند ذكر فتح الإسكندرية.

قال المؤلف: "وأما خلوة كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة، فلا بد له من سبب. والغالب أنهم ذكروها، ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الراشدين فحذفوه، أو لعل لذلك سبباً آخر إلخ"، (الجزء الثالث صفحة 44 و 45).

لا يستبعد مثل هذا الكلام من مثل المؤلف! وكيف يقدر ديانة مؤرخي الإسلام، وشدتهم في تحري الصدق، ونزاهتهم عن التغيير والتحريف، وبراءة ساحتهم عن الحذف والإسقاط، من صارت غريزته تعمد الكذب والتحريف والخيانة والمحو والإثبات!

قال المؤلف: "ثالثاً: ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين، خبر إحراق مكاتب فارس وغيرها على الإجمال. وقد لخصها صاحب كشف الظنون"⁽¹⁶⁹⁾، (الجزء الثالث صفحة 45).

انظر إلى هذا الكذب الفاحش والخديعة الظاهرة! فإن صاحب الكشف ذكر ما ذكر من عند نفسه من غير نقل رواية ولا استناد ولا استشهاد بكتاب، ولا ذكر ناقل أو مؤرخ، وصاحبنا يقول: إنه ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر إحراق المكاتب، وقد لخصها صاحب كشف الظنون، فأين الأماكن الكثيرة؟ وأين التلخيص؟

أما قول صاحب كشف الظنون فقد ورد عرضاً وتطفلاً⁽¹⁷⁰⁾، وكذلك قول ابن خلدون⁽¹⁷¹⁾. وأمثال هذه المواقع لا تحتاج إلى كبير اعتناء وزيادة احتياط. ولذلك لما ذكر ابن خلدون فتح مصر

166 - هو أبو عبد الله محمد بن بركات السعدي المتوفى سنة 520هـ. وكان كتابه في خطط مصر، كما ذكر المقريري في الخطط، ج 1، ص 12.

167 - في الطبعتين والمنار: عبد الله، والصواب ما أثبت. وهو الأمير المؤرخ محمد بن عبيد الله بن أحمد المسيحي المتوفى سنة 420هـ. وكتابه في تاريخ مصر في 12 مجلداً. وقد وصل إلينا جزء منه.

168 - إلا كتاب ابن شاهين فإنه متأخر، وكان عمره عند وفاة المقريري نحو 32 سنة.

169 - زيد هنا في المنار: "إلخ".

170 - كشف الظنون، ج 1، ص 34، 676، وفي الموضع الثاني أورد كلام ابن خلدون.

171 - انظر: مقدمة ابن خلدون، ج 1، ص 333، وج 3، ص 1008.

والإسكندرية - وهو المظنة لذكر هذه الواقعة - لم يتفوه بهذه الرواية أصلاً. ثم إن ابن خلدون وصاحب كشف الظنون من رجال القرن الثامن وبعده، فما لم يذكر⁽¹⁷²⁾ من أين أخذوا هذه الرواية، لا يُعابها ولا يُلتفت إليها.

قال المؤلف: "رابعاً: إن إحراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور... كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية"⁽¹⁷³⁾، (الجزء الثالث صفحة 45).

يا للعجب! عبد الله بن طاهر من قواد المأمون ومن رجال الأدب، وهذا العصر يمتاز بكونه عصر العلم والمعارف، وقد كانت للدولة ورجال حاشيتها وغيرهم عناية كبرى بكتب الأوائل، وكانوا يستجلبون الكتب من فارس وبلاد الروم وغيرها. وتجد تفاصيل ذلك في فهرست ابن النديم، وطبقات الأطباء، وأخبار الحكماء، وغيرها. فكيف يعول على هذه الرواية التي ما ذكرها أحد من ثقاة المؤرخين؟ وإنما استند المؤلف ببراون⁽¹⁷⁴⁾ المعلم⁽¹⁷⁵⁾ الإنكليزي، وهو نقلها من تذكرة دولت شاه وهو كتاب جامع لكل غثٍ وسمين. ولو صح نقلها لكانت على سبيل الندرة والشذوذ، فهل يصح قول المؤلف: "إن إحراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور"؟

قال المؤلف: "خامساً: إن أصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة وإحراق كتب أصحابها من قبيل السعي في تأييد الأديان الجديدة". ثم ذكر في تأييد ذلك عمل أباطرة⁽¹⁷⁶⁾ الروم وإحراق كتب المعتزلة، (ج 3، ص 46)⁽¹⁷⁷⁾.

نعم، ولكن الراشدين لا يقاسون بغيرهم. ثم إن المسألة ليست قياسية، فما لم تثبت بالرواية⁽¹⁷⁸⁾ لا ينفع مجرد القياس.

قال المؤلف: "سادساً: في تاريخ الإسلام جماعة من أئمة المسلمين أحرقوا كتبهم من تلقاء

172 - زيد بعده في الطبعة الثانية: "أنهم"، وهو خطأ.

173 - زيد بعده في المنار: إلخ.

174 - Edward Browne وقد أحال جرجي زيدان على كتابه في تاريخ الأدب في إيران.

175 - يعني بالمعلم هنا وفي المواضع الأخرى: البروفسور.

176 - وقع في الطبعة الأولى: "إمبراطورة"، وفي المنار: "إمبراطرة"، وكذا في جدول التصحيحات الملحقة في آخر الطبعة الأولى، وكلاهما خطأ. والصواب في جمع "إمبراطور": "أباطرة" كما جاء في مصدر النقل في هذا الموضع.

177 - هذه الإحالة من المنار: ولم ترد في الطبعة الأولى.

178 - في الطبعة الثانية: "بالرواة"، وهو خطأ.

أنفسهم". ثم ذكر بعض الحوادث في تأييد ذلك. (ج 3، ص 46) (179).
عجبًا لمثل هذا الاستدلال! فإن المرء يجوز له أن يفعل بملكه ما يشاء، وأي حجة في ذلك
لإحراق كتب أفوام آخر؟

إن هذه القياسات الواهية لا تغني شيئًا. ولكن لو أردنا (180) أن نستشفي في ذلك البحث
بالقياس والأمارات، فعلينا أن ننظر ما كان صنيع الخلفاء الراشدين بآثار أهل الذمة ومعابدهم وكنائسهم
وأمتعتهم وخزائنها. إن الأصل في ذلك عهد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتبه لأهل نجران،
وقد ذكره القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج بحروفه: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي
رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم، وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم، وكل ما تحت
أيديهم من قليل أو كثير"، (كتاب الخراج طبع مصر صفحة 41) (181).

فكان هذا العهد هو العمدة للصحابة، عضوا عليه بالنواجذ. وتجد في كل عهود الخلفاء
الراشدين كعهد نجران ومصر والشام والجزيرة أن هذا الأصل - أي ذمة الله ورسوله على أرضهم وكل ما
تحت أيديهم من قليل أو كثير - محفوظ باقٍ على حالته الأصلية. وعهد مصر هو هذا: "هذا ما أعطى عمرو
ابن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وصاعهم ومدهم وعددهم" (182).

وذكر في معجم البلدان (183) رواية بزيادة "أن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرضون في شيء
منها". وأنت تعلم ما لعمر الفاروق من العناية والشدة في وفاء العهد بأهل الذمة وغيرهم. ومع عهده
بأنهم لا يتعرضون في شيء من أموالهم وكل ما تحت أيديهم، كيف كان يتعرض لخزانة كتبهم التي هي من
أنفس ذخائرهم وأغلاها؟

اعلم أن مسألة إحراق خزانة الإسكندرية موضوع مهم عند أهل أوروبا، وقد طال البحث فيه
إثباتًا ونفيًا. ومن ألم هذا البحث إجمالًا وتفصيلًا: المعلم "وايت" (184)، والمعلم "دسامي" (185)

179 - هذه الإحالة أيضًا من المنار.

180 - في الطبعة الثانية: "إن أردنا"، والذي غير ما ورد في الطبعة الأولى والمنار فاته أن (لو) قد تكون حرف شرط في المستقبل.

181 - وانظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص 176.

182 - انظر: تاريخ الطبري، ج 4، ص 109. ولعل المؤلف صادر عن تاريخ ابن خلدون، ج 2، ص 555، وانظر:

مجموعة الوثائق السياسية، ص 502.

183 - في رسم الفسطاط، ج 4، ص 263.

184 - J. white

الفرنساوي (186) في ترجمته كتاب الإفادة والاعتبار و "واشنگتن إرونگ" (187) و "دريبر" (188) الأمريكي صاحب كتاب الجدل بين العلم والدين، و "كرچتن" (189)، وسيديو (190) الفاضل الشهير الفرنسي في تاريخ الإسلام، والمعلم "رينان" (191) الفيلسوف الفرنسي في خطبة الإسلام والعلم، و "أرتكلمين" (192). وللمعلم "كريل" (193) الألماني رسالة مستقلة في هذا البحث قدمها في المؤتمر الشرقي الذي انعقد سنة 1778م (194)، وأورد فيها كل ما كتب الباحثون في هذا البحث نفيًا أو إثباتًا. وقد طالعت كل هذه المباحثات والمقالات، وعملت رسالة في اللغة الأردنية (195)، وترجمت إلى الإنكليزية (196)، ثم إلى العربية ترجمها أحد أهل الشام (197). وطبع شطرٌ منها في جريدة ثمرات الفنون (198) ومجلة المقتبس.

والحاصل: أن محققي أهل أوروبا قضوا بأن الواقعة غير ثابتة أصلاً. منهم: "جيبين" (199) المؤرخ الشهير الإنكليزي، و "دريبر" الأمريكي و "سيديو" الفرنسي، و "كريل" الألماني، والمعلم "رينان" الفرنسي. عمدتهم في إنكار ذلك أمران:

De Sacy	-185
غير في المنار هنا وفيها يأتي إلى "الفرنسي"، وقد سبق مثله.	-186
Washington Irving	-187
Draper	-188
Andrew Crichton	-189
Sedillot	-190
Renan	-191
Arthur Gilman	-192
Krell	-193
في المنار: "1828"، وهو خطأ.	-194
كان في الطبعة الأولى: "لسان الأردو"، وعدل في التصحيحات: "اللسان الأردوي"، وفي المنار: "اللسان الأردوي". وكل أولئك له وجه. وغير في الطبعة الثانية إلى "اللغة الأردنية"!	-195
ترجمها الأستاذ محمد غوث سعيد، وصدرت في حيدرآباد الدكن سنة 1893م في 48 صفحة.	-196
لم أقف على ترجمة عربية كاملة: أما الخلاصة التي طبعت في مجلة المقتبس ونشرها في هذا الكتاب فقد ترجمها من الإنكليزية الأستاذ محمد لطفي جمعة، وهو مصري.	-197
لم أقف عليها.	-198
Edward gibbon	-199

الأول: أن الواقعة ليس لها عين ولا أثر في كتب التاريخ الموثوق بها كالطبري، وابن الأثير، والبلاذري وغيرها مما مر ذكرها. وأول من ذكرها عبد اللطيف البغدادي (200) والقفطي، وهما من رجال القرن السادس والسابع، ولم يذكر مصدرًا للرواية ولا سندًا.

والثاني: أن الخزانة ضاعت (201) قبل الإسلام. أثبتوا ذلك بدلائل لا يمكن إنكارها.

هل منع الصحابة والتابعون من تدوين العلم؟:

قال المؤلف: "قلنا فيما تقدم: إن الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب... ولذلك منعوهم من تدوين الكتب... وكان هذا الاعتقاد فاشيًا في الصحابة والتابعين، وتمسك به جماعة من كبارهم. وكانوا إذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا" (202)، (الجزء الثالث صفحة 50).

أطال المؤلف ونقل أقوالاً عديدة في إثبات أن الخلفاء الراشدين والصحابة كانوا يمنعون الناس عن الكتابة والتأليف. ونحن لا ننكر أن هذا كان مذهبًا لبعض الصحابة والتابعين، ولكن الذين رخصوا في ذلك وأمروا بالكتابة والتدوين أكثرهم عددًا، وأرجحهم ميزانًا، وأوسعهم نفوذًا. وقد عقد المحدث المشهور القاضي ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم، (انظر 36 طبع مصر) بابًا في إثبات ذلك. ونحن ننقل شطرًا منها (203)، قال:

- "وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قيدوا العلم بالكتاب" (204).
- وعن عبد الملك بن سفيان (205) عن عمه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: قيدوا العلم بالكتاب.
- وعن معن قال: أخرج إلي عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابًا، وحلف لي: إنه خطُّ أبيه بيده.
- وعن أبي بكر (206) قال: سمعت الضحاك يقول: إذا سمعت شيئًا فاكتبه، ولو في حائط.

-
- 200 "البغدادي" في المنار.
 - 201 وقع في الطبعة الأولى: "كان ضاعت"، وحذف "كان" في جدول الخطأ والصواب. وفي المنار: "كانت ضاعت".
 - 202 زيد في المنار بعده: "إلخ".
 - 203 يعني: من الآثار المذكورة في هذا الباب. وفي المنار: "منه" يعني: من الباب المذكور. وانظر طبعة دار ابن الجوزي من الكتاب، ج 1، ص 309-335.
 - 204 يعني: بالكتابة. وهذا المعنى - أعني معنى المصدر - جاء اللفظ كثيرًا في الأحاديث والآثار، كما سترى.
 - 205 كذا وقع في جامع بيان العلم، والصواب: "عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان"، كما أثبتته محقق الكتاب، ج 1، ص 309 من سنن الدارمي (514) وتقييد العلم للخطيب، ص 88. وعمه عمرو بن أبي سفيان.

- وعن سليمان بن موسى قال: يجلس إلى العلم ثلاثة: رجل يأخذ كل ما سمع، فذلك حاطب ليل. ورجل لا يكتب، ويستمع، فذلك يقال له: جليس العالم. ورجل يتتقي⁽²¹⁰⁾، وهو خيرهم، وهذا هو العالم⁽²¹¹⁾.
- وعن إسحاق بن منصور قال: قلت لأحمد بن حنبل: من كره كتابة العلم؟ قال: كرهه قوم، ورخص فيه آخرون. قلت له: لو لم يكتب العلم لذهب. قال: نعم، لولا كتابة العلم أي شيء كنا نحن؟ قال إسحاق: وسألت إسحاق بن راهويه، فقال كما قال أحمد سواء.
- وعن حاتم الفاخر⁽²¹²⁾ - وكان ثقة - قال: سمعت سفيان الثوري يقول: إني أحب أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه: حديث أكتبه أريد أن أتخذه ديناً. وحديث رجل أكتبه فأوقفه: لا أطرحه، ولا أدين به. وحديث رجلٍ ضعيفٍ أحبُّ أن أعرفه، ولا أعبأ به.
- وقال الأوزاعي: تعلَّم ما لا يؤخذ به، كما تتعلم ما يؤخذ به.
- وعن سعد بن إبراهيم قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا⁽²¹³⁾، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا.
- وعن أبي زرعة قال سمعت أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يقولان: كل من لا يكتب العلم لا يؤمن عليه الغلط.
- وعن الزهري قال: كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحدًا من المسلمين.
- وذكر المبرد قال: قال الخليل بن أحمد: ما سمعت شيئاً إلا كتبتّه، ولا كتبتّه إلا حفظته، ولا حفظته إلا نفعني.

الضغط على أهل الذمة:

ادّعى المؤلف أن عمر بن الخطاب كتب عهداً لنصارى الشام وذكر نصّه منقولاً عن سراج الملوك للطرطوشي، واعترف بأن فيه ضغطاً على النصارى. ثم اعتذر لعمر بأن نصارى الشام كانوا يميلون إلى

210- في الطبعين والمنار: "يتتهي". والصواب ما أثبت من مصدر النقل، ج 1، ص 328.

211- واللفظ في مصدر النقل: "وذلك العالم".

212- في المنار: "الفاخري"، وهو خطأ.

213- في المنار: "دفترًا" مرة واحدة، ولعل مصححها ظن الثانية تكرارًا.

قيصر الروم، وكانوا من بطانته يتجسسون له؛ فلذلك احتيج إلى الشدة بهم والتضييق عليهم. كل من له أدنى مُسكة في التاريخ يعرف أن الطرطوشي ليس من رجال التاريخ، وكتابه أدب وسياسة، لا كتاب تاريخ. وهو من رجال القرن السادس⁽²¹⁴⁾، وإنما المعول في هذا البحث على المصادر القديمة الموثوق بها، كتاريخ الطبري والبلاذري واليعقوبي وابن الأثير وغيرها. وهذا ما كان يخفى على المؤلف، ولكن لأجل هوى نفسه أعرض عن كل هذه، وتشبث برواية واهية تحالف الروايات الصحيحة المذكورة بإسنادها ورجالها. قال القاضي أبو يوسف - وهو مع كونه من رجال الفقه عارفٌ بالمغازي والسير - بعد ما نقل عهد نصارى الشام، وليس فيه أدنى ضغط عليهم ولا شدة بهم:

"فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين، وعوناً للمسلمين على أعدائهم. فبعث أهل كل مدينة رسالهم ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا. فأتى أهل كل رسالهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعاً...⁽²¹⁵⁾ فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جُبي من الجزية والخراج. وكتب إليهم أن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنه قد بلغنا أنه جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنما لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم...⁽²¹⁶⁾ فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا: ردكم الله علينا، ونصركم عليهم. فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً"، (كتاب الخراج طبع مصر صفحة 80 و 81).

فانظر إلى هذا العدل الذي عجز البشر عن إتيان مثله، واعتراف أهل الذمة بذلك! وإلى قول

المؤلف: إن عمر ضغط عليهم وإنما ضغط لأنهم كانوا من جواسيس الروم!

214- ولد سنة 451هـ وتوفي سنة 520هـ. من أهل طرطوشة بشرقي الأندلس. الأعلام للزركلي، ج 7، ص 133.

215- حذف النقاط في المنار لخفائها على مصححها كما سبق.

216- هنا أيضاً حذف في المنار.